مشوار كتب الرحلة

(قديماً وحديثاً)

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

تأليف

دكتور سيد حامد النساج

الناشر
مكتبة غريب
٢٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

كلمة

هذا الكتاب الصغير حجماً ، جزء من تجربة أقدمت عليها ، حين أصدرت كتابى (رحلة التراث العربى) ١٩٨٤ . وكان أوّل تعامل لى مع تراثنا العربى القديم . وقد استندت التجربة فيه إلى اختيار خمسة من كتب التراث ، درست كلاً منها دراسة تحليلية تكشف عن أبعاده الفكرية والفنية . ثم تابعت تأثيره وامتداده فى الكتب العربية التى صدرت بعده ، على امتداد حركة المكتبة العربية ، حتى العصر الحديث .

وقد وجدت الفكرة صداها المأمول عربيا . وطبع الكتاب أربع طبعات . بالإضافة إلى عدد وافر من الدراسات والمقالات النقدية التى وقفت عنده .

وكنت قد طالبت بأن ننظر فى تراثنا نظرة جماعية ، وأن نقوم على دراسته من خلال رؤية عربية علمية موضوعية ، تشترك فيها فرق بحث تمثل تخصصات متنوعة ، وبلاداً عربية كثيرة . وكتاب اليوم خطوة فى نفس الاتجاه . يتناول موضوع « الرحلة » . والكتب التى ألفت فى هذا الإطار ، منذ الرحلة التى دونها « ابن جبير » ومن أتى بعده من الرحالة العرب الذين سجّلوا رحلاتهم فى أسلوب أدبى نثرى ، حتى بعض الرحلات التى كتبت فى السبعينيات والثمانينيات من هذا القرن .

وقد نجد تعريفاً باتجاهات الرحلة ، وموضوعاتها ، واختلاف أساليب تناولها للأشخاص ، والأماكن ، والأحداث ، وما شابه ذلك . وقد نظفر بمحاولة تحديد خطوات تطور هذا اللون من الكتابة : شكلاً وموضوعاً ، لغة ورؤية . وقد نقرأ عناوين كثيرة لرحلات لم نقف عندها ، وإنما كنا نشير إليها محاولين تجسيد أهمية دراسة « الرحلة » والالتفات إليها باعتبارها شكلاً من الأشكال الأدبية ، ينبغى أن يلتفت إليه .

وقائمة المصادر والمراجع تكشف عن الجهد المبذول ، بالإضافة إلى عناء تدريسه لسنوات متصلة لطلاب الدراسات العليا ، هنا وهناك ، ومحاورتهم فيما كانوا يثيرونه حول هذا الموضوع .

وفقنا الله لما فيه خير الثقافة العربية الأصيلة والمعاصرة .

د. سيد حامد النساج

شغلت الدراسات الأكاديمية والنقدية فى عالمنا العربى المعاصر ، بدراسة فنون الأدب المتباينة ، من قصة قصيرة ، ورواية طويلة ، ومسرح، ونقد ، وشعر . لكنها لم تلتفت – طويلاً – إلى لون أدبى نثرى ، شهد عدداً كبيراً من التآليف فيه . وأقدم على الكتابة فيه عدد وافر من الكتاب العرب الأعلام . ويستطيع الباحث المدقق أن يظفر بمئات الكتب فى هذا اللون من الكتابة . ألا وهو «أدب الرحلات» . أى ذلك النثر الأدبى الذى يتخذ من «الرحلة» موضوعاً . أو بمعنى آخر : الرحلة عندما تكتب فى شكل أدبى نثرى مميز ، وفى لغة خاصة ، ومن خلال تصور بناء فنى له ملامحه وسماته المستقلة .

بل إن هنالك من يبالغ فيزعم أن آدب الرحلة أو الرحلات عموماً (من أهم فنون الأدب العربى ، لسبب بسيط ، وهو أنها خير دليل على التهمة التى طالما اتهم بها هذا الأدب ، ونقصد تهمة قصوره فى فن القصة . ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر الفولجا وعَبَدة النار والإنسان البدائى والراقى مما يصور الحقيقة حيناً ، ويرتفع بنا إلى عالم خيالى حيناً آخر) .

هذا القول للاستاذ الدكتور شوقى ضيف فى كتابه (الرحلات) صفحة ٦ مدفوع بحماس شديد للأدب العربى القديم ، فى محاولة لتأكيد أن هذا الأدب عرف فن القصة ، والدليل على ذلك موجود فى كتب الرحلة. والحق أن هذا الحكم على إطلاقه قد يبدو مبالغاً . ذلك أنه إذا توفرت عناصر القصة فى بعض الكتب ، فإنها قد لا تتوفر فى غيرها . وعند تأكيد مثل هذا الحكم ينبغى دراسة فن القصة أولاً ، من حيث بناؤها الفنى ، وأسسها ، وخصائصها . ثم تأتى – بعدئذ – مسألة الكشف عن مدى تمثل كتاب الرحلة لها ، من خلال ماكتبوه جميعاً .

كما أن القول بأن كتب الرحلة تصور الحقيقة حيناً ، وترتفع بنا إلى عالم الخيال حيناً آخر ، لا يمكن إطلاقه هكذا بعمومية لا تقبل الجدل والمناقشة . إذ إن منها – وهو الأغلب الأعم – يلتزم بالحقيقة المجردة ليس غير . ومنها ما يسمح – فقط – بمساحة بسيطة من الخيال . إذ إن نسبة الخيال فى كتب الرحلة قليلة . حيث إن هذا اللون من الكتابة يعتمد فى الأساس على الواقع : أناسي وآثار ومعلومات وأماكن وألوان من الطعام والشراب والأزياء ، وما شابه ذلك مما لا يتيح الفرصة للكاتب حتى يعمل خياله أو يطلقه كيف يشاء . فالتعديل أو التغيير أو التبديل أو وصف الأشياء بما ليس فيها ، قد يبعد الكاتب عن الحقيقة ، ويدفع إلى اتهامه بالكذب والتزييف .

ومن الكتاب من يكتفى بعرض المعلومات التى يشاهدها فى رحلته ، دون تدخل بلاغى ، لأنه يستهدف إيصال المعلومات والمشاهد بدقة ووضوح ، دون تأويل ، ودون استخدام لكلمات قد تصرف ذهن القارئ عن

معرفة الحقيقة . ومنهم من ينقل الصور والمشاهد على نحو يحقق التأثير الوجدانى ، أو ينقل الأحاسيس والعواطف التى يجدها فى نفسه من يجتلى تلك المشاهد والآثار والصور . وهذا البعد هو الذى يملأ النفس متعة وتأثيراً ، ويجعل للرحلة سمة أدبية بدلاً من أن تقف عند حد التسجيل والتدوين والجمود .

وقد نلمس ذلك فى بعض كتابات الجغرافيين العرب ، الذين اتبعوا هذه الوسيلة فى وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم . إذ عُنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب ، وطباعها ، وما بديارها من آثار وعجائب ، وقصّوا ما عندها من أساطير وخرافات . وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتباً أدبية .

لعل وجود هذين الأسلوبين فى تناول الرحلة ، هو الذى جعل بعض من تصـدوا لها يذهبون إلى تحديد قيمتين بارزتين فى كـتب الرحلات ، هما القيمة العلمية ، والقيمة الأدبية . الأولى تأتى مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها مما يدونه الرحالة تدوين المعاين فى غالب الأحيان ، من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة . بمعنى أنه ينقل ما يراه ليضعه بين أيدى الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع أو الاقتصاديين .

إنه وهو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض إنما يعمل فى خدمة علم الجغرافيا . فهو عندما يصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم والمدن والمسالك ، وعندما يتحدث عن الطبيعة والمناخ ، وظاهرات

توزيع السكان وغير ذلك مما يعد من صميم الدراسات الجغرافية ، إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعاً أساسياً بالنسبة لمن يتناول هذه الموضوعات بالدراسة . وما يقال عن الجغرافيا يقال عن التاريخ والأدب والآثار والاقتصاد والأديان والأساطير . ذلك أن الرحلات سجل حقيقى لمختلف مظاهر الحياة فى مجتمع بعينه ، ومرحلة تاريخية محددة .

أما أسلوب الكتابة ، واللغة التى يتوسل بها كاتب الرحلة ، فإنه قد يضيف إليها قيمة أدبية ، وبخاصة عندما يحتفل الكاتب بالأساطير والخرافات ، وبعض المحسنات البلاغية ، وجمال اللفظ ، وحسن التعبير ، وارتقاء الوصف ، وبلوغه حداً كبيراً من الدقة ، علاوة على ما قد يستعين به – أحياناً – من أسلوب قصصى ، سلس ، مشرق . وهذا هو الذى يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربى، عندما تصبح قراءة هذا اللون من الكتابة متعة ذهنية .

هناك قيمة أخرى لكتب الرحلات ، هى القيمة التعليمية . من حيث إن هذا النوع من الكتب يسهم فى تثقيف القارئ وإثراء فكره وتأملاته عن الآخرين . ذلك أن كتاب الرحلات يصورون إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذى قاموا فيه برحلاتهم ، وثقافة البلدان التى ذهبوا إليها ، وأحوال الشعوب التى اختلطوا بها . إن مثل هذه الكتب فى مثل هذه الحالة تعتبر مصدراً لوصف الثقافات الإنسانية . كما تعد أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان . فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة ، إضافة إلى الاجتهاد فى دراسة أخلاقهم وطباعهم ، والتحقيق فى دياناتهم ونظم حكمهم ، غالباً ما تضع أمام الفرد مجالاً طيباً للمقارنة ، من حيث إنها تساعده على إعادة النظر فى تقاليد ونظم بلده .

أيا ما كان الأمر فإن كتب الرحلة تتسم بعدد من السمات المشتركة. مثل : الشمول والتنوع . وهما ملمحان بارزان فى معظم ما كتب فى هذا الميدان . حيث تتسع موضوعات كتبهم فتشمل التاريخ والجغرافيا والدين والاجتماع والسياسة . كذلك فإنها تعنى بالوصف الدقيق ، والتصوير الأمين ، والنقل الصادق . بدافع تحرى الدقة تحرياً علمياً موضوعياً . وهى عندئذ تتحلى بالابتعاد عن الهوى والميل والغرض الذاتى . إذ إن منهم من لم يقبل الأخبار دون غربلة أو دون التأكد من صحتها . ثم إن مثل هذه الكتابات كانت تصدر عن التزام مفاده أن العرب أمة واحدة ذات حضارة إنسانية عالمية ينبغى لها أن تعود إلى مكانها . ولن يتأتى هذا إلا بتوحيد العرب ، وخروج المستعمرين الأجانب من البلدان العربية . كى ينهض الشعب العربى ، ويسعى لتحقيق ذاته وحقه فى الحياة والوجود .

هذه هى نقطة الانطلاق ، والهدف الذى يسعون إليه . بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه .

وثمة دوافع متنوعة كانت وراء احتفال العرب المسلمين بالرحلة ، والانتقال والتجوال . وربما تكون هذه الدوافع وراء تحديد اتجاهات الرحلات وتصنيفها لدى البعض . ولا ننسى أن فى القرآن الكريم آيات كثيرة تلفت النظر إلى أهمية السفر ، وفضيلته ، وتدعو إلى النقلة والترحال . من ذلك قوله تعالى : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) . وقوله (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) . فالرحلات تزيدنا علماً بقدرة الله وحكمته ، وتدعو إلى شكر نعمته . من هنا أمسك العرب المسلمون بزمام الرحلة وتحمسوا لها . مما جعل الرحلة عندهم تنال حقها الكامل من الاهتمام والأمان ، واستحقاقها الفعال من قوة الدافع والحوافز على الطريق فى البر والبحر .